

مدرسة جديدة لإنسان جديد

ميشيل سير

ترجمة: حماني أفعلي، باحث في التربية



يعتبر ميشيل سير أن دخول المجتمعات المعاصرة في العصر الرقمي، يشبه من حيث زخم التحولات التي يحملها، الانتقالات الكبرى التي حصلت في الماضي، مثل الانتقال من الشفهي نحو الكتابة، أو الانتقال من النسخ اليدوي نحو الطباعة. فكل واحدة من تلك التحولات صاحبها تغيرات سياسية واجتماعية ومعرفية. مع الزمن الرقمي يولد، حسب ميشيل سير، إنسان جديد يطلق عليه «الإبهامة الصغيرة» في إشارة إلى السرعة والحذق العالين اللذان يطبعان استخدام الصغار والشباب للإبهامة في كتابة الرسائل على الهاتف الجوال.

نقدم هنا ترجمة الفصل الثاني من كتاب ميشيل سير الصادر سنة 2012 عن دار بومبي، والمخصص لتحليل آثار التحول الرقمي على مجال التربية والتعليم⁽¹⁾.

رأس البوصة (الإبهامة) الصغيرة

في كتابه «الأسطورة اللامعة»، يحكي جاك دوفورجين JAQUES DE VORAGINE عن وقوع معجزة في مدينة لوتيس⁽²⁾ (lutèce) خلال قرن الاضطهاد الذي سنه الأمباطور دوميتيان. في تلك المدينة، ألقى الجيش

1- Michel SERRES, *Petite poucette*, Editions Le Pommier, 1012, pp. 27-47

2- لوتيس كانت تطلق على المدينة الغولية التي تسمى اليوم باريس، Lutetia هي فرنسا للكلمة الرومانية.

ولد ميشيل سير (Michel Serres) بآجن في فرنسا سنة 1930. التحق بالمدرسة البحرية سنة 1949، ثم بالمدرسة العليا (باريس) سنة 1952، حيث نال شهادة التبريز في الفلسفة (1955). يعمل حاليا أستاذا بجامعة ستانفورد، وهو عضو بالأكاديمية الفرنسية. نشر العديد من المؤلفات في الفلسفة وتاريخ العلوم، منها سلسلة الكتب، ذات العنوان الرئيسي Hermès حيث اهتم قبل الكثيرين، ومنذ أوائل السبعينيات بقضايا الاتصال والشبكات والترجمة. كما أولى أهمية خاصة للتفكير في التحولات التي تشهدها التربية وطرق نقل المعارف في المجتمعات الغربية.

الروماني القبض على دينيس الذي كان قد انتخب أسقفا لمسيحيي باريس الأولين. اعتقل دينيس، وعذب في جزيرة لاسيتي، ثم حكم عليه بأن يضرب عنقه على قمة تل سيسمى مونتمارتر. لكن العساكر الذين كلفوا بتنفيذ هذا الحكم كانوا كسلاء، فعدلوا عن الصعود إلى أعلى التل، وأعدمو الضحية وهم في منتصف الطريق إليه. تهاوت رأس الأسقف على الأرض. كان ذلك مرعبا. نهض دينيس،

فالتقط رأسه من الأرض وأخذها بين يديه، واستمر في تسلق المنحدر. إنها معجزة. أصيب العساكر بالهلع، فهربوا. ويضيف المؤلف أن دينيس توقف عند عين ليغسل رأسه من دمها، ثم استأنف طريقه إلى أن وصل سان دينيس الحالية. وها هو في عداد القديسين.

فتحت البوصة الصغيرة حاسوبها. وإذا كانت لا تتذكر هذه الأسطورة، فإنها تعتبر، مع ذلك، أن رأسها توجد أمامها، بين يديها. إنها رأس جد مملوء بسبب الاحتياطي الهائل من المعلومات التي تتضمنها؛ وهي رأس جيدة، أيضا، لأن محركات البحث تشغل فيها، كلما أرادت ذلك، نصوصا، وصورا؛ ولأن عشرات البرامج تستطيع، أحسن من ذلك، أن تقوم بمعالجة عدد غير متناه من المعلومات بسرعة تفوق استطاعتها. تمسك البوصة الصغيرة هنا، خارج ذاتها، معرفتها التي كانت في الماضي بداخلها، كما يمسك سان دينيس رأسه المفصولة عن جسده. هل نتصور البوصة الصغيرة وهي مقطوعة الرأس؟ هل هي معجزة؟

في الآونة الأخيرة، صرنا جميعا مثل سان دينيس. لقد خرجت رأسنا الذكية من

رأسنا العظيمة والعصية. وبالفعل، لقد صارت علبة الحاسوب التي بين أيدينا تحوي وتشغل ما كنا نسميه في الماضي ملكاتنا : أي ذاكرة تفوق قوتها قوة ذاكرتنا آلاف المرات، وخيال مزود بملايين الرموز، وعقل كذلك ؛ لأن كل هذه البرامج تستطيع حل مائة مشكلة لم نكن لنقدر على حلها لوحدنا. إن رأسنا مرمية أمامنا في هذه العلبة المعرفية الموضوعة (objectivée).

بعد هذا الانفصال، ماذا بقي على أكتافنا؟ بقي عليها الحدس المخترع والخلاق. فبعد سقوطه في العلبة، ترك لنا التعلم الفرح الوهاج الذي يترتب عن الابتكار. نور على نور : هل حكم علينا أن نصير أذكاء؟

عندما ظهرت المطبعة، فضل مونتيني الرأس الجيدة على المعرفة المتركمة، لأن ذلك التراكم الذي صار موضوعا يرقد في الكتاب على رفوف مكتبته. فقبل كوتنبرغ، كان يجب علينا، إذا كنا نمارس التاريخ، أن نعرف عن ظهر قلب تيوسيديديس (THUCYDIDE) و تاسيتوس (TACITE) ؛ كما كان يلزم علينا أن نعرف أرسطو والميكانيكيين الإغريق إذا كنا نهتم بالفيزياء، وأن نعرف ديموستينيس (DEMOSTHÈNE) وكانتليانوس (QUINTILIEU) إذا كنا نريد إتقان فن الخطابة... كان يجب، إذن، أن تكون رأسنا مملوءة بكل هؤلاء. اقتصاد : أن نتذكر مكان الكتاب على رفوف المكتبة يكلف الذاكرة أقل مما يكلفها تذكر محتوى الكتاب. اقتصاد جديد وجذري هذه المرة : لم يعد أحد في حاجة إلى تذكر مكان الكتاب، لأن آلة البحث في الحاسوب تتكلف بذلك.

من الآن فصاعدا، صارت رأس البوصة الصغيرة المقطوعة الرأس، تختلف عن الرؤوس القديمة التي كانت جيدة أكثر مما كانت مملوءة. وبما أنها لم تعد في حاجة للكد من أجل اكتساب المعرفة، مادامت هذه الأخيرة موجودة هنا، ملقاة أمامها ؛ موضوعية، ومجموعة، وجماعية، ومتصلة بحاسوبها، ويمكن الوصول

إليها كلما أرادت ذلك، وقد تمت مراجعتها ومراقبتها عشر مرات، فإن بوسعها أن تلتفت إلى الجدعة الغائبة التي تطل على عنقها المقطوع. من هناك يمر الهواء، والريح، وأفضل من ذلك، يمر منه ذلك النور الذي صورته الرسام المدعي بونات (BONNAT) بالألوان عندما رسم معجزة سان دينيس على جدران البانتيون في باريس. هناك تكمن العبقرية الجديدة، أي الذكاء المبدع، والذاتية المعرفية الحقة، التي تجعل أصالة البنت (أي البوصة الصغيرة) تلجأ إلى ذلك الفراغ الشفاف تحت هذا النسيم العليل. إنها معرفة بثمر شبه منعدم، ولكنها معرفة صعبة المنال.

الصلب والناعم

كيف استطاع هذا التغيير الحاسم أن يقع؟ عمليون وواقعيون، نعتقد، بدون أدنى مقاومة، أن الثورات لا تحدث إلا بصدد الأشياء الصلبة. تهمنا الأدوات، المطرقات والمناجل. نذهب إلى حد تسمية بعض الحقب التاريخية بأسماء تلك الأدوات : الثورة الصناعية الحديثة العهد، وعصر البرونز، وعصر الحديد، وعصر الحجر المصقول، وعصر الحجر المقطوع... عمي صم بهذا القدر أو ذاك، فإننا لا نولي للعلامات الناعمة نفس الاهتمام الذي نوليها لتلك الآلات الملموسة، والصلبة، والعملية.

لكن ابتكار الكتابة، وابتكار المطبعة الذي جاء متأخرا عنه بعض الشيء، قلبا الثقافات والجماعات أكثر مما فعلت الأدوات : لقد أظهر الصلب فعاليته بصدد أشياء العالم، وأظهر الناعم تأثيره على مؤسسات الإنسان. التقنيات تقود أو تفترض العلوم الصلبة (أي العلوم التجريبية والمادية)، والتكنولوجيات تقود وتفترض العلوم الإنسانية، والمجالس العمومية، والسياسة والمجتمع. هل كان بإمكاننا، لولا الكتابة، أن نتجمع في المدن، وأن نضع القانون، ونؤسس الدولة، ونتصور ديانة التوحيد، والتاريخ، ونبتكر العلوم الحقة، ونؤسس التربية (la paideia)؟ هل كنا سنضمن استمراريتها كل ذلك؟ هل كنا سنغير تلك

المؤسسات، وتلك المجالس في عصر النهضة - التي أحسنت (بضم الهمزة) تسميتها - لولا المطبعة؟ إن الناعم (اللين) ينظم أولئك الذين يستعملون الصلب ويؤلف بينهم.

نعيش اليوم معا باعتبارنا أبناء الكتاب، وحفدة الكتابة دون أن نشك في ذلك أبدا.

مجال الصفحة

في كل مكان، يظهر المكتوب اليوم، وهو على شكل مطبوع، ناتنا في المجال، إلى حد اجتياحه المناظر الطبيعية وإخفائها. تهيمن علينا الصفحة وتقودنا متخذة شكل الملصقات الاستشهادية، والعلامات الطرقية، والأزقة، والشوارع المسهمة، والأوقات في محطات السفر، ونتائج المباريات في الملاعب، والترجمات في الأوبرا، ومخطوطات الأنبياء في معابد اليهود، وكتب الإنجيل في الكنائس، والمكتبات في حرم الجامعات، والسبورات السوداء في الحجرات الدراسية و«الباور بوينت» في المدرجات الجامعية، والمجلات، والجرائد... وتعيد الشاشة إنتاج تلك الصفحات.

إن المسح القروي، وتصاميم المدن والتعمير، ومشاريع البناء، ورسوم القاعات العمومية، والغرف الحميمة... كلها تحاكي بصفحاتها المربعة والرقمة، الوحدات الترابية لأسلافنا، تلك الوحدات التي كانت عبارة عن مربعات مزروعة بالفصّة، أو قطع أرض محروثة، والتي كان الفلاح يترك على صلابتها أثر سكة المحراث. لقد سبق للمحراث أن رسم خطه على هذا المجال المقسم إلى قطع. هذه هي وحدة الإدراك المجالية للفعل والتفكير والمشروع. هذا هو الشكل الذي يعود لآلاف السنين، والذي يفرض نفسه علينا نحن البشر، الغربيين على الأقل، كما يفرضه على نحل فرنسا تقريبا.

التكنولوجيات الجديدة

مادامت التكنولوجيات الجديدة لم تخرج بعد من الشكل/الصفحة هذا، فإن هذا الأخير سيهيم علينا إلى حد بعيد، من حيث لا نشعر ولا ندري. تحاكبه شاشة الحاسوب التي تفتح بدورها كما يفتح الكتاب. فمازالت البوصة الصغيرة تكتب عليه بأصابعها العشرة، وتكتب على هاتفها النقال بإبهاميهـا. وبمجرد ما تنتهي من العمل، تسارع إلى طبع ما كتبهـا. يبحث المخترعون من كل الأصناف عن الكتاب الإلكتروني الجديد. والحال أن الإلكترونيك لم تتخلص بعد من الكتاب، وإن كانت تعني شيئاً آخر غير الكتاب تماماً، شيئاً آخر غير شكل الصفحة العابر للتاريخ. بقي أن نكتشف هذا الشيء، وستساعدنا البوصة الصغيرة على ذلك.

أتذكر اندهاشي، قبل بضع سنين، عندما رأيت، وأنا في مدرج جامعة ستانفورد التي كنت أدرس فيها منذ ثلاثين سنة، أبراجاً معدة للإعلاميات تشيد، بتمويل من مليارديرات سيليكون فالي المجاورة، بجوار الزوايا المربعة القديمة، على شكل مماثل تقريبا، من حيث الحديد والإسمنت والتركيب الزجاجي، لشكل البنايات القديمة المبنية بالأجرة (بضم الجيم وفتح وشد الراء) والتي كانت تدرس فيها منذ قرون الهندسة الميكانيكية، أو التاريخ الوسيط : نفس التوضع على الأرض، ونفس الحجرات الدراسية، ونفس الممرات ؛ فالشكل المستوحى من الورق هو المهيمن دائماً ؛ وكأن الثورة الحديثة العهد، وهي قوية قوة ثورة المطبعة والكتابة على الأقل، لم تغير شيئاً في المعرفة، ولا في البيداغوجية، ولا حتى في المجال الجامعي ذاته الذي تم ابتكاره في الماضي من قبل الكتاب، ومن أجله.

لا. إن التكنولوجيات الجديدة ترغمننا على الخروج من هذا الشكل المجالي الذي استلزمه الكتاب والصفحة.

تاريخ موجز

بداية، قامت الأدوات الصلبة المستعملة بتعويض قوانا الجسدية. هكذا عوضت الآلات البسيطة، كالرافعات العادية، والرافعات البحرية، العضلات، والعظام، والمفاصل الخارجة من الجسم، والتي تحاكي تلك الأدوات كيفية اشتغالها. ثم عوضت الآلات المحركة حرارتنا المرتفعة التي تصدر عن الجسم والتي تشكل مصدر طاقتنا. وأخيرا عوضت التكنولوجيات الجديدة الرسائل والعمليات الناعمة التي تجري داخل الجهاز العصبي، كالمعلومات والرموز. لقد أصبحت هذه الأداة الجديدة تتولى، جزئيا، عملية اكتساب المعرفة نفسها.

ماذا بقي، إذن، فوق الأعناق المقطوعة لكل من سان دينيس الباريزي، وأبناء وبنات اليوم؟

البوصة الصغيرة تتأمل

الكوجيتو: يتميز فكري عن المعرفة وعن عمليات المعرفة - الذاكرة، وعن الخيال، والعقل الاستنباطي، والدقة، والهندسة... التي تم تعويضها بنقط الاشتباك العصبية والخلايا العصبية في الحاسوب. وخير من ذلك، إنني أفكر، وأبتكر إذا اتخذت مسافة إزاء ذلك العرفان وتلك المعرفة، وإذا ابتعدت عنهما. اهتديت إلى ذلك الفراغ، وإلى ذلك الهواء غير الملموس، وإلى تلك الروح التي يعكس اسمها تلك الريح. أفكر بليوننة أكبر في هذه الليونة الموضعة. ابتكر إذا تمكنت من ذلك الفراغ. لا تتعرفوا علي من خلال رأسي، ولا من خلال ما حشي فيها بكثافة، ولا من خلال مواصفاتها المعرفية الفريدة؛ وإنما من خلال غيابها اللامادي؛ ومن خلال النور الشفاف الذي ينبثق عن فصلها عن الجسد. تعرفوا عليها من خلال لاشيء.

فسر مونتيني، كيف تعمل رأس لتصير جيدة للغاية. وقد يكون قد رسم، بالتالي، خانة يتعين ملؤها، لتعود الرأس المملوءة. وإذا حاولنا اليوم رسم هذه الرأس الفارغة، فإنها ستسقط، مرة أخرى، في الخارج؛ في الحاسوب. لا. لا يجب قطعها لاستبدالها بأخرى. يجب أن لا نشعر بأي قلق من جراء الفراغ. هيا لنتشجع... المعرفة وأشكالها، والمعرفة ومناهجها، والتفاصيل غير المحدودة، والتراكيب المثيرة للإعجاب التي كان يجمعها القدماء كأذرع الصدر في الهوامش التي يملئون بها صفحات كتبهم، والمراجع الهائلة التي يهتمونني بنسبائها. لقد سقط كل ذلك في اللعبة الإلكترونية تحت ضربة سيف معذبي سان دينيس. تنسحب الآن من كل هذا، وهي غريبة وشبه متوحشة، وتنطلق سريعا في الفراغ، وفي عدم أهليته البيضاء والساذجة. يقاس الذكاء المخترع بالمسافة التي تفصله عن المعرفة.

لقد تغير الآن موضوع الفكر. إن الخلايا العصبية التي تم تنشيطها في الضوء الأبيض للعنق المقطوع، والتي تخشخش في الحاسوب، تختلف عن تلك التي تحيل عليها الكتابة والقراءة في رأس أسلافنا.

من هنا تأتي الاستقلالية الجديدة للفهم التي تطابقها حركات جسدية بدون إكراه ولا هرج الأصوات ومرجها.

الأصوات

إلى غاية هذا الصباح، كان المدرس، في فصله الدراسي، أو في مدرجه، يلقي معرفة راقدة، جزئيا، في الكتب. كان يعبر شفويا عما هو مكتوب، ويكتب صفحة - مصدرا. وإذا ابتكر، وهذا أمر نادر، فإنه سيكتب غدا صفحة على شكل مجموعة نصوص، كأن كرسيه بمثابة مكبر لصوته. ولإنجاز هذا البرنامج الشفهي، كان يطلب الصمت، وهو ما لم يعد يحصل عليه.

إن موجه ما نسميه «التشويش في القسم» الذي تكون منذ الطفولة في الأقسام التحضيرية والابتدائية، والذي تحول إلى تسونامي في الثانوي، قد وصل، اليوم، إلى التعليم العالي، حيث امتلأت المدرجات التي باتت يغطي عليها التشويش، لأول مرة في التاريخ، بهرج ومرج دائمين، يجعلان من الصعب كل إنصات، ويحولان دون الاستماع إلى الصوت القديم للكتاب. هذه ظاهرة عامة بما فيه الكفاية لنعيرها الاهتمام. البوصة الصغيرة لا تقرأ، ولا ترغب في أن تسمع المكتوب وهو يقال. لم يعد الكلب الذي كان يرسمه إشهار قديم يسمع صوت صاحبه. إن البوصة الصغيرة وأخواتها وإخوانها، الذين أرغموا على الصمت منذ ثلاث ألييات يحدثون، من الآن فصاعدا، ضجيجا جماعيا في الخلف يكتم صداد مكبر صوت الكتابة.

لماذا تشوش البوصة الصغيرة في القسم ضمن هرج ومرج أصدقائها الثرارين؟ لأن الجميع يعرف بشكل مسبق المعرفة المعروضة عليهم. فهذه الأخيرة توجد رهن الإشارة، وفي متناول اليد، ويمكن الحصول عليها بواسطة الشبكة العنكبوتية، والويكيبيديا، وتحميلها بواسطة أية بوابة وهي مُفسّرة، وموثقة، وموضحة بواسطة الرسوم والصور، ولا تتضمن من الأخطاء أكثر مما تتضمنه أحسن الموسوعات. لم يعد أحد في حاجة إلى أبواق الأمس، اللهم إذا كان أحدهم يتميز بالندرة والأصالة، ويبتكر.

إنها نهاية عصر المعرفة.

العرض والطلب

تعلن هذه الفوضى الجديدة والبدائية، ككل مرج، عودة البيداغوجيا أولا، وعودة السياسة في كل جوانبها ثانيا. في ما مضى، ومنذ عهد قريب، كان التعليم يقوم على العرض. كان هذا الأخير حصريا، وكانت قدرته التبليغية للمعارف تتوقف على عدة عوامل. لم يكن يعبأ أبدا بالاستماع إلى رأي أو صوت الطلبة.

هذه هي المعرفة، مخزونة في صفحات الكتب. هكذا كان يتكلم مكبر الصوت وبيبن، ويقرأ، ويقول : اسمعوا، ثم أقرؤوا إن شئتم. وفي جميع الأحوال، عليكم بالصمت.

كان العرض يقول مرتين : اسكت.

انتهى الأمر. موجة التشويش في الأقسام الدراسية تعلن رفض هذا العرض، وتعبر عن طلب جديد، وعن ابتكاره وتقديمه. وهذا الطلب هو بدون شك طلب معرفة جديدة. لقد وقع تغير مفاجئ. لنستمع بدورنا، نحن المدرسين المتكلمين، إلى هذه الإشاعة المبهمة والفوضوية المتعلقة بهذا الطلب المشوش، والصادر عن المتعلمين الذين لم يكن أحد يستشيرهم في ما مضى ليعرف منهم إن كانوا حقيقة يطلبون ما يعرض عليهم.

لماذا تهتم البوصة الصغيرة أقل فأقل بما يقوله مكبر الصوت؟ لأن عرضا منتظما وخاصا يصبح، أمام عرض متزايد لحقل ضخم من المعارف المتوفرة في كل مكان، مثيرا للسخرية. كان السؤال يطرح بحدة في الوقت الذي كان يلزم التنقل لاكتشاف معرفة ناذرة وسرية. أما الآن، فهي في المتناول، وبوفرة، وقرية، بما في ذلك توفرها في الكتب ذات الحجم الصغير التي تحملها البوصة الصغيرة في جيبها، تحت منديلها. إن موجة النفوذ إلى المعرفة ترتفع إلى مستوى موجة التشويش.

هذا الصباح، مات العرض الذي لا يقابله طلب. العرض الضخم الذي تلاه وحل محله يتراجع أمام الطلب. هذا صحيح بالنسبة للمدرسة، وسأقول إنه صحيح كذلك بالنسبة للسياسة. هل هي نهاية عصر الخبراء؟

المرتعدون الصغار

غاص الكلب أذنيه وأنفه في مكبر الصوت، وظل جالسا مفتونا بالسماع، لا يتحرك. منذ سن مبكرة، بدأنا، ونحن أطفال وديعين، مهنة جلوس طويلة، ساكنين، وصامتين، ومصطفين. الاسم الذي كنا نحمله في الماضي هو المرتعدون الصغار. كنا نخضع، وجيوبنا فارغة، ليس فقط للمعلمين، وإنما أيضا، وبالخصوص، للمعرفة التي كان يخضع لها المعلمون أنفسهم بتواضع. كنا نعتبرها نحن وإياهم، سيدة وجليلة. لم يكن أحد ليتجرأ على كتابة مؤلف حول الخضوع الإرادي للمعرفة. لم نكن أغبياء، ولكن كنا مروعين. كان البعض منا يجدون أنفسهم مرهبين من قبل المعرفة، الشيء الذي يمنعهم من التعلم. يجب أن نحاول فهم هذه المفارقة : فحتى لا يتم فهم المعرفة ورفضها، في الوقت الذي تريد أن تكون مقبولة ومفهومة، كان يلزم أن تكون مرعبة.

كانت الفلسفة تتحدث أحيانا، وبحروف استهلاكية، عن المعرفة المطلقة. كانت توجب، إذن، أن ننحني لها خاضعين كما كان ينحني أسلافنا أمام السلطة المطلقة للملك الحق الإلهي. لم يسبق أن كان لديمقراطية المعرفة وجود. ليس لأن البعض ممن كانوا يملكون المعرفة كانوا يملكون السلطان، وإنما لأن المعرفة نفسها كانت تتطلب أجساد مهانة، بما فيها أجساد الذين يملكونها. وباعتبارها أضعف الأجساد كلها، فإن هيئة المدرسين تعطي الدروس وهي تشير إلى ذلك المطلق الغائب الذي يتعذر الحصول عليه في النهاية. وتظل الأجساد المفتونة ساكنة لا تتحرك.

يعيد فضاء المدارس والإعداديات والجامعات، الذي سبق أن تم ترتيبه بواسطة الصفحة، ترتيب نفسه وفق هذا التراتب المحايث للهيئة الجسدية : الصمت والسجود. إن تركيز الانتباه على المنصة (في القسم والمدرج)، حيث يستلزم مكبر الصوت الصمت والسكون، يعيد، في البيداغوجيا، إنتاج تركيز الأنظار

على القاضي في قاعة المحكمة، وعلى الخشبة في قاعة المسرح، وعلى العرش في البلاط، وعلى الواحد في فضاء الكنيسة المتعدد. صفوف من الكراسي المتزاحمة، معدة للأجساد المشلولة التي تنتمي إلى تلك المؤسسات - الشكنات؛ تلك هي المحكمة التي أدانت سان دينيس. هل هي نهاية عصر الفاعلين؟

تحرير الأجساد

ظهر أمر جديد. إن سهولة الوصول إلى المعرفة قد أعطى للبوصة الصغيرة، كما لكل الناس، جيوبا مملوءة بالمعرفة الموجودة تحت الناديل. يمكن للأجساد أن تخرج من الكهف حيث يربطها الانتباه والصمت وانحناء الظهور إلى الكراسي بما يشبه الأغلال. لنعدها إليه (أي إلى الكهف) مرة أخرى بالقوة، ولن تبقى أبدا في أماكنها على الكراسي. يسمى ذلك الشغب ضد المدرس.

لا. في الماضي، كان يرسم مجال المدرج على شكل حقل قوي يوجد مركز جاذبيته الأوركستري على المنصة؛ في النقطة البؤرية للكرسي. هناك تقع الكثافة الثقيلة للمعرفة المنعدمة تقريبا في الأطراف. لكن، من الآن فصاعدا، أصبحت المعرفة التي توزع في كل مكان، تنتشر في مجال متجانس وغير مركز. لقد مات الفصل الدراسي الذي كان، وإن كنا مازلنا لا نرى إلا هو، ولا نعرف أن نبني إلا هو، وما يزال مجتمع الفرجة يريد أن يستمر في فرضه.

أخذت الأجساد، إذن، تتحرك، وتمشي، وتومي، وتنادي، وتساءل، وتتبادل بشكل إرادي ما عثرت عليه تحت مناديلها. فهل سيعقب الصمت التشويش؟ وهل سيعقب الصخب السكون؟

لا. إن البوصات الصغيرة التي كانت في الماضي سجينات تتحررن من أغلال الكهف الذي يعود لآلاف السنين؛ تلك الأغلال التي كانت تربطهن في أماكنهن، وهن ساكنات، وصامتات، وأفواههن مخيطة، ومؤخراتهن لاصقة على الكراسي.

الحركية : السائق والركاب

يمكن، كذلك، أن نرسم مجال الفصل الدراسي أو المدرج على شكل حجم مركبة، كالقطار، أو السيارة، أو الطائرة، التي يجلس الركاب داخلها مصطفين، ويتركون السائق يقودهم نحو المعرفة. انظر الآن إلى جسم الراكب، وهو متراخي، وبطنه إلى الأعلى، ونظرته حاملة وسلبية. أما السائق فهو، على عكس ذلك، يحني ظهره، ويمد يديه إلى المقود، وهو نشيط ومنتبه.

عندما تستعمل البوصة الصغيرة الحاسوب أو الهاتف النقال، فإن ذلك يتطلب أن يكون جسدها كجسد سائقة متوترة ونشيطة، وليس كجسد راكب سلبي ومتراخي. إن ذلك يستدعي طلبا وليس عرضا. إنها تحني ظهرها، ولا تنام على ظهرها. ادفعوا هذه الشخصية الصغيرة إلى فصل دراسي، ولن يتحمل جسدها، الذي تعود على السياقة، كرسي الراكب الخامل لمدة طويلة. ستنشط عندئذ لكونها محرومة من آلة السياقة، وستقوم بالتشويش. ضعوا بين أيديها حاسوبا، وستستعيد حركات جسم السائق.

لم يعد يوجد سوى السائقين ؛ سوى القوى المحركة. لم يعد للمتفرجين وجود. لقد امتلأ مجال المسرح بفاعلين متحركين. لم يعد في المحكمة قضاة ؛ لا يوجد فيها إلا الخطباء الفعاليين. لم يعد في المحراب قسيسون، فقد امتلأ المعبد بالواعظين. لم يعد في المدرج أساتذة ؛ كما لم يعد للأقوياء وجود في الساحة السياسية التي أصبحت، من الآن فصاعدا، محتلة من قبل المعنيين بالقرار أنفسهم.

التلقين الثالث

بحثت البوصة الصغيرة عن المعرفة في آلتها ووجدتها فيها. لم تكن تعرض تلك المعرفة، التي كان النفوذ إليها نادرا، إلا مجزأة، ومشتتة، ومقطعة الأوصال.

فصفحة بعد صفحة، تخضع كل مادة لتصنيفات عامة تعطيها نصيبها، وتحدد شعبتها، وأسلاكها الدراسية، ومختبراتها، وجزءها من المكتبة، وميزانيتها، والناطق باسمها، والهيئة المثلة لها. كانت المعرفة تنقسم إلى طوائف وشيع. هكذا يتم تشتيت الواقع.

كان النهر، مثلاً، يختفي وراء المواد المبعثرة (التي تتناولها)، كالجغرافيا، والجيولوجيا، والجيوفيزيائية، والهيدروديناميكا، وعلم بلوريات الطمي، وعلم أحياء السمك، وفن صيدها، وعلم المناخ، دون احتساب علم زراعة السهول المسقية، وتاريخ المدن التي غمرتها المياه، والنزاعات بين الجيران، زيادة على الجسريات، والقوارب، وجسر ميرابو... وبخلط هذه الأجزاء المتناثرة، وإدماجها، وتوحيدها؛ لتكوين الجسد الحي لمجرى النهر انطلاقاً منها، سيمكن النفوذ السهل إلى المعرفة من استيطان النهر، وهو مملوء، أخيراً، إلى أعلى مستواه.

ولكن كيف يمكن تجميع هذه التصنيفات (للمواد الدراسية)، وإلغاء الحدود بينها، وتجميع صفحات سبق تقطيعها، وتنضيد تصاميم الجامعة، وتوحيد الدرجات، وتجميع عشرين شعبة، والعمل بالشكل الذي يسمح بالتفاهم بين كل هؤلاء الخبراء ذوي المستوى العالي، والذين يدعي كل واحد منهم أنه يملك التعريف الوحيد والصحيح لماهية الذكاء؟ كيف يمكن تغيير حرم الجامعة الذي يشبه معسكر الجيش الروماني المحصن، وكلاهما مقسم إلى مربعات بواسطة طرق عادية، وموزع إلى كتّيبات أو بساتين متجاورة؟

الأجوبة: يمكن تحقيق ذلك بالإنصات إلى الصوت العميق النابع من الطلب، ومن العالم، ومن الساكنة، واتباع الحركات الجديدة للأجساد، وبمحاوله توضيح المستقبل الذي تقتضيه التكنولوجيا الجديدة.

من جديد، كيف ذلك؟

التنافر في مقابل الترتيب

لنطرح هذا السؤال بصيغة أخرى، وإن كان ذلك ينطوي على مفارقة : هل ينبغي رسم الحركات البرونية⁽³⁾؟. يمكننا على الأقل أن نشجع الاكتشافات غير المتوقعة التي تحدث عنها بوسيكو.

بوسيكو هو مؤسس المتجر المعروف في باريس باسم Le Bon Marché. في البداية، رتب بوسيكو البضائع المعروضة للبيع في متجره هذا حسب رفوف وحسب مجموعة من الرفوف. وضع كل رزمة من البضائع في رفها الخاص، وهي مصنفة ومنظمة كالتلاميذ المصطفين في القسم، أو كالفاليق الرومانية في مخيمهم المحصن. كانت كلمة الطبقة (classe) تعني، في الأصل، هذا الجيش المنظم على شكل صفوف ضيقة. وبما أن متجر بوسيكو الكبير - الذي كان كونيا من أجل سعادة النسوة، كما كانت الجامعة كونية من أجل لذة التعلم - يضم، لأول مرة، كل ما يمكن أن يحلم به المشتري من مواد غذائية، وأثاث، ومستحضرات التجميل... فإن النجاح سرعان ما حالف صاحبه الذي اغتنى بسرعة. تتحدث الرواية التي خصصها إيميل زولا لهذا المبتكر عن خيبة الأمل التي أصابته لما استقر رقم أعماله لمدة طويلة بعد أن وصل ارتفاعه الأقصى.

ذات صباح، وإثر حدس مفاجئ، قلب بوسيكو الترتيب العقلاني لمتجره، فحول ممراته إلى متاهة، ومجموع رفوفه إلى فوضى. وعندما جاءت السيدة جدة البوصة الصغيرة لتشتري الكرات من أجل حساتها، اضطرت، بسبب هذه الصدفة المبرمجة بدقة، أن تعبر رفوف الحرير والدنتيلا لتجد نفسها، في آخر المطاف، قد اشترت الحلبي زيادة على الخضر. فارتفعت مبيعات متجر بوسيكو من جديد.

3- الحركة البرونية عبارة كيميائية تعني حركة الحزنيات المجهرية داخل سائل معيف.

للتشتت مزايا لا يعرفها العقل. النظام عملي وسريع، ولكنه قد يقيدنا. فهو يساعد على الحركة، إلا أنه يجمدها في النهاية. القائمة المرجعية ضرورية للفعل، غير أنه من الممكن أن تجعل الاكتشاف عقيما. وعلى العكس من ذلك، فإن الهواء يدخل الفوضى تماما كما هو الأمر بالنسبة للآلة التي تنطوي على تداخل. والحاصل أن التداخل يؤدي إلى الابتكار. فبين العنق والرأس المقطوعة يظهر التداخل نفسه.

لنتبع البوصة الصغيرة في ألعابها، ولنستمع إلى بوسيكو وهو يحدثنا عن حدسه السبيرانديني الذي تطبقه كل المتاجر منذ ذلك الوقت. نقلب تصنيف العلوم؛ ولنضع شعبة الفيزياء إلى جانب الفلسفة، واللسانيات أمام الرياضيات، ولنرتب الكيمياء مع الإيكولوجيا. لنحفر في التفاصيل، ونجزئ القوائم الجاهزة للمحتويات حتى يتمكن باحث في مجال معين أن يلتقي أمام بيته بباحث آخر، أت من فضاء غريب، ويتحدث لغة أخرى. سيسافر بعيدا دون أن يزجج نفسه. ستعقب المعسكر الروماني العقلاني (le castrum) المقسم عموديا إلى مجموعة من الجماعات المربعة، فسيفسد ذات أجزاء متنوعة. إنه نوع من المشاكل⁽⁴⁾؛ إنه فن الترصيع، وخليط من الأشياء المتنوعة والمختلفة.

لقد أخذ التعليم الثالث يحلم بجامعة ذات مجال مختلط، ومبرقع، و متموج الألوان، وموشى، ومبرقش، ومزخرف، وواقعي تماما كمنظر طبيعي. ففي الوقت الذي كان يلزم الجري بعيدا للقاء الآخر، وفي الوقت الذي كنا نبقى في بيوتنا حتى لا نسمعه، هاهو بيننا، يلازمنا بدون انقطاع، ودون أن نكون في حاجة إلى التحرك من مكاننا.

4- «آلة أنبوبية تحتوي على مرآة مركزية بحيث أن الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولد رسوما مختلفة الأشكال والألوان»، المنهل.

إن الذين تتحدى مؤلفاتهم كل تصنيف، والذين يزعمون المعرفة في كل الاتجاهات، يلحقون الإبداعية، بينما لا تصلح الطرق شبه العقلانية لشيء. كيف يمكن إعادة رسم الصفحة؟ بنسيان نظام العلل. سيكون النظام الجديد نظاما بالتأكيد، ولكنه نظام بدون علة. يجب أن نغير أسلوب تفكيرنا. إن الفعل الثقافي الحقيقي الوحيد هو الابتكار. لنفضل، إذن، متاهة الرقاقات الإلكترونية. صاحت البوصة الصغيرة : يحيا بوسيكو، تحيا جدتي.

المفهوم المجرد

وماذا عن المفاهيم التي يصعب تكوينها أحيانا؟ قل لي : ما هو الجمال؟ أجابت البوصة الصغيرة : الجمال هو امرأة جميلة، وفرس جميل، وطلوع شمس جميل. توقفي. لقد طلبت منك مفهوما، وستذكرين لي ألف مثال لما هو جميل. لن تنتهي أبدا من بناتك وإناث مهرك (بضم الميم وسكون الهاء).

ولذلك، كانت الفكرة المجردة تعني اقتصادا كبيرا جدا في الفكر: إن فكرة الجمال تتضمن ألف شيء وشيء جميل؛ تماما كما أن دائرة المهندس تتضمن أعدادا لا تحصى ولا تعد من الدوائر. لو كنا ملزمين بسرد كل تلك الأشياء الجميلة، وكل تلك الدوائر التي لانهاية لها، لما كان بإمكاننا أبدا أن نكتب صفحات وكتبا ونقرأها. أكثر من ذلك، يمكن لي أن أرسم حدود الصفحة دون اللجوء إلى هذه الفكرة التي تسد تسريبات هذه القائمة غير المحدودة.

هل مازلنا في حاجة إلى التجريد؟ إن آلاتنا تسير بسرعة إلى درجة أنها تستطيع أن تعد ما لانهاية له من الأشياء الخاصة، وأن تتعرف على ما هو أصيل. وإذا كانت صورة الضوء ما تزال تستطيع أن تسعفنا لتمثيل المعرفة، إن صح هذا القول، فإن أسلافنا كانوا قد اختاروا وضوحه، بينما اخترنا نحن سرعته. يمكن لمحرك البحث أن يحل، أحيانا، محل التجريد.

وكما تغيرت ذات المعرفة، كما رأينا أعلاه، يتغير الآن موضوعها. لم نعد في حاجة ماسة إلى المفهوم. قد نكون في حاجة إليه، أحيانا، ولكن ليس دائما. يمكن أن نتوقف المدة الضرورية عند السرديات، والأمثلة، والخصوصيات، والأشياء ذاتها. هذه الجدة العملية والنظرية تعيد لعارف الوصف الفردي كرامتها. ومن ثمة، تعطي المعرفة لأشكال الممكن، والعارض، والتميز، الاعتبار الذي تستحقه. مرة أخرى، تنهار بعض التراتبات. فعالم الرياضيات، الذي صار خبيرا في الفوضى، لم يعد يحترق علوم الحياة والأرض التي أخذت تمارس الخلط على طريقة بوسيكو، والتي كان يجب أن تدرس بطريقة مندمجة، لأن تقطيع الكائن الحي بطريقة تحليلية، يؤدي حتما إلى موته. مرة أخرى، يترك نظام العلل - الذي ما يزال نافعا، وإن كنا لا نعبأ به أحيانا - المجال لمنطق جديد ومنفتح على الشخص المتفرد الذي يتخذ، بطبعه، طابع المتاهة. إنه السرد.

قام المهندس المعماري بقلب توزيع المجال الجامعي : مجال السير، وشفوية منتشرة، وحركات حرة، ونهاية الطبقات المصنفة، وتوزيعات متفاوتة، واكتشافات عن طريق الصدفة، وسرعة الضوء، وجدة (بكسر الجيم وشد الدال) الذات والموضوع، والبحث عن منطق جديد... لم يعد بإمكان المعرفة أن تنتشر في أي فضاء من الفضاءات الجامعية في العالم ؛ تلك الفضاءات المرتبة، والمشكلة (بضم الميم، وفتح الشين والكاف) صفحة صفحة، والخاضعة لنمط العقلانية القديم الذي يحاكي معسكر الجيش الروماني. هذا هو مجال الفكر الذي أصبحت تسكن فيه البوصة الصغيرة منذ هذا الصباح نفسا وجسدا.

لقد قام سان دينيس بتهدة الفيلق.

حوار

ابتكار المدرسة من جديد

مارسيل كوشيه

فيليب ميريو

ترجمة حماني أظلي

ابتكار المدرسة من جديد

حوار مع مارسيل كوشيه وفيليب ميريو⁽¹⁾

ترجمة: حماني أقفلي، باحث في التربية

تعددت المشاريع والسياسات الإصلاحية، إلا أن أزمة المدرسة الفرنسية ما فتأت تتفاقم : الأطفال والشباب يناهضون أكثر فأكثر سلطة الأساتذة والكبار بصفة عامة ؛ كما تتصاعد وتيرة الهدر المدرسي وتتنوع أنماط الشغب والعنف في الوسط المدرسي.

في هذا الحوار، يحاول كل من فيليب ميريو ومارسيل كوشي تقديم بعض الأفكار من أجل سياسة تربوية بديلة.

على العمل التربوي تحديات جديدة تماماً؟ إنها تتعلق بأربع جهات على الأقل : علاقة الأسرة بالمدرسة، ومعنى المعارف، ومكانة السلطة، ومكانة المدرسة في المجتمع.

مبدئياً، تسعى الأسرة والمدرسة إلى نفس الغاية، هي تربية الأطفال : فالأسرة تربي، والمدرسة تعلم، كما كان يقال قديماً. على المستوى العملي،

سؤال: إلى أي مدى يزعزع تطور مجتمعاتنا شروط إمكانية العمل التربوي؟

مارسيل كوشيه: نحن فريسة خطأ في التشخيص : نطلب من المدرسة أن تجد، بوسائل بيداغوجية، حلولاً لمشاكل حضارية ناتجة عن حركة مجتمعاتنا ذاتها، ونددهش لكونها لا تتمكن من ذلك... ما هي تلك التغيرات الجماعية التي تطرح اليوم

1- Dialogue publié dans le quotidien français «Le Monde », samedi 3 septembre 2011.

ولد فيليب ميربو سنة 1949 واشتغل بالتدريس في كل الأسلاك (الابتدائي والثانوي الإعدادي ثم التأهيلي العام منه والمهني). يعمل حاليا أستاذا جامعيا يدرس علوم التربية.

تولى إدارة تحرير «دفاتر بيداغوجية» وساهم في إحداث المعهد الجامعي لتكوين المدرسين (IUFM) بفرنسا.

ألف ونشر العديد من الدراسات في مجال الفكر التربوي، منها :

- Le choix d'éduquer, ESF, 1991

- Frankenstein pédagogue, ESF, 2007

- Un pédagogue dans la cité, Desclée de Brouwer, 2012

رهن إشارتنا مجموعة غير متناهية من الأدوات واللعب لابد لنا من شرائها من أجل إرضاء نزوات ذريتنا. وقد عمل هذا الاقتران بين ظاهرة ديمغرافية وظهور نزوة معولة في ظل اقتصاد يجعل من دافع الشراء مصدر السلوك الإنساني على زعزعة الأشكال والأوليات التقليدية للنظام المدرسي.

سؤال: إلى أي مدى يقلب هذا المعطى الجديد المواجهة البيداغوجية بين المدرس والتلميذ؟

فيليب ميربو: درست مؤخرا في قسم المتوسط الثاني بعد انقطاع دام عدة سنوات، ولم يثر انتباهي انخفاض

صارت الأمور أكثر تعقيدا، ذلك أن الأسرة تعتمد اليوم على المدرسة التي يفترض أنها تربي وتعلم في الوقت نفسه. لقد تمت خوصصة الأسرة التي كانت، قديما، دعامة المجتمع. فهي، من الآن فصاعدا، تقوم على علاقة شخصية وعاطفية بين كائنات يسعون إلى مصلحتهم الحميمة وحدها. يصعب إدماج العمل التربوي في هذا الإطار الذي يهدف إلى التفتح العاطفي للأشخاص.

فليب ميربو: نعيش لأول مرة في مجتمع أغلبية الأطفال الذين يولدون فيه أطفال مرغوب فيهم. يؤدي هذا الوضع إلى انقلاب جذري: فقديما، كانت الأسرة تصنع الأطفال. أما اليوم، فإن الأطفال هم الذين يصنعون الأسرة. ولما جاء الطفل ليلبي رغبتنا، فقد تغيرت مكانته، فأصبح سيذا: فنحن لا نستطيع أن نرفض له طلبا دون أن نصبح «آباء سيئون».

جندت الليبرالية التجارية هذه الظاهرة: فوضع مجتمع الاستهلاك

الذي يتعب نفسه أشد التعب من أجل العمل على خفض التوتر داخل القسم، وإثارة انتباه التلاميذ. ففي عالم التواصل في «الزمن الواقعي» عبر الأنترنت، ومع التصاعد المتزايد للتأثيرات التي تتطلب ردود أفعال غرائزية مباشرة، تتزايد صعوبة القيام بعمل التدريس. إن عددا كبيرا من الزملاء يتعثرون يوميا بسبب استحالة القيام بما يعرفه كابريل ماديني (Gabriel Madinier)، تعبيرا عن الذكاء ذاته، ألا وهو «قلب التشتت».

سؤال : بما أن بعض الآباء لا يربون أبناءهم من أجل هم جماعي، وإنما من أجل تفتحهم الشخصي، فهل يجب أن نأسف على كون الثقافة لم تعد قيمة مشتركة في أوروبا؟ وماذا يتعين علينا فعله لكي تستعيد هذه الأخيرة (أي الثقافة) مكانتها المركزية؟

مارسيل كوشيه : كانت المعرفة والثقافة تعتبران أدوات لولوج «الإنسية» كاملة، وذلك في خط متواصل ينطلق من التهذيب البسيط، وصولا إلى فهم العالم الذي نعيش فيه. وهذا

المستوى، بقدر ما أثارته الصعوبة الخارقة للعادة لضبط قسم شديد الغليان.

على العموم، التلاميذ ليسوا عنيفين أو عدوانيين، ولكنهم لا يلزمون أماكنهم. يجب على المدرس أن يقضي وقتا من أجل بناء أو إعادة بناء إطار مهيكّل. فهو ملزم، في أكثر الأحيان، على تطبيق «بيداغوجية النادل»: يجري من تلميذ إلى تلميذ ليعطي لكل واحد على حدة تعليمات سبق أن أعطاها للجماعة، وليهدئ البعض، ويعيد البعض الآخر إلى العمل. وهذا الطلب الدائم لمخاطبة كل تلميذ على انفراد ينهك المدرس

ولد مارسيل كوشي سنة 1946. يعمل مديرا للدراسات بمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (باريس) وفي مركز الأبحاث السياسية رايمون آرون. كما يشغل منصب مدير تحرير مجلة (Débat) الفرنسية التي تصدر عن دار غاليمار.

نشر العديد من الأبحاث حول نشأة الديمقراطية والحدافة وانتشار ثقافة حقوق الإنسان في التاريخ الفرنسي الحديث. واهتم أيضا بقضايا التربية من منظور فلسفي، حيث نشر بتعاون مع ماري كلود بليز ودومنيك أتا في الكتب الآتية :

-Pour une philosophie de l'éducation, Hachette littérature, 2003.

-Les conditions de l'éducation, Stock, 2008.

نتعلمه؟ هذه هي المفارقة الكبيرة لمجتمعاتنا التي تعتبر نفسها «مجتمعات المعرفة» : لقد غابت الوظيفة الحقيقية للمعرفة عن نظرتنا.

لهذا السبب يتكون لدينا انطباع بأننا نعيش في مجتمع بدون رban : لم تعد هناك رأس لتحاول فهم ما يجري : نقوم بردود أفعال، وندبر، ونتكيف. لكن ما نحتاج إليه هو استعادة معنى المعارف، ومعنى الثقافة.

سؤال : هل معنى هذا أن سلطة المعرفة والثقافة لم تعد بديهية بغض النظر عن مدى صعوبة الفصل الدراسي أو سهولته؟ وكيف يمكن ابتكارها من جديد؟

مارسيل كوشيه: لقد ماتت السلطوية، وبدأت مشكلة السلطة. نقل الدين نموذج السلطة لمدة طويلة. لما كنت عاجزا على فهم أسرار الإيمان، لم يكن عليك إلا العودة إلى رجال الدين والجيش، حيث محاولة الفهم تعني بداية العصيان. لقد انهارت اليوم هذه الأشكال من الإيملاءات غير

هو ما يغذي المثل الأعلى للمواطن الديمقراطي. لقد فقدنا اليوم تلك المكانة، وتم اختزال دورهما في دور منفعي أو ترفيهي.

انفصلت فكرة الإنسانية عن فكرة الثقافة، فلم نعد في حاجة إليها لكي نوجد. أصبحنا غارقين في موجة من الخصوصات التي تفرض علينا أن نعيش لأنفسنا وحدها، وأن لا نضيع وقتنا في محاولة فهم محيطنا.

وراء الشعار التحرري في الظاهر: «افعلوا ما تشاؤون»، تكمن مسلمة «عدمية» مفادها أنه «لا فائدة ترجى من وراء المعرفة، ولا يمكن التحكم في العالم بأي وجه من الوجوه. اقتصروا على ما هو ضروري لتسيير أعمالكم. وبالنسبة لما تبقى، اهتموا بأنفسكم».

صارت المدرسة في قلب هذه الحركة الكبيرة : حركة فقدان مجتمعاتنا لثقافتها، وهو أمر لا يسهل مهمتها. وهذا ما يعبر عنه التلاميذ من خلال انتقادهم اللاذع : «لماذا يصلح ما

فالمدرسون يوجدون فيها باسم مجتمع
لا يعترف بالدور الذي يقومون به.

فيليب ميريو: تعود أزمة السلطة إلى
كونها لاصقة بالفرد، وغير مدعومة
من قبل وعد اجتماعي يتقاسمه
الجميع. كان المدرس يستمد سلطته
من المؤسسة. أما اليوم، فإن الأمر لم
يعد كذلك. كانت المدرسة تضمن سلطة
المدرس من خلال وعدها لمن يخضع
لها بالنجاح. النجاح الموعود به كان
نجاحا مؤجلا، ولكنه كان حقيقيا.

أما اليوم، فقد تبخر وعد المدرسة
بالنجاح. لم يعد مبدأ «اعمل
وستنجح» يغري أحدا. المدرسة التي
كانت مؤسسة صارت خدمة تخضع
المبادلات فيها لحسابات الربح على
المدى القريب. لقد تم فسخ العقد
الذي كان يربط المؤسسة المدرسية
بالآباء. فكثيرا ما يعتبر هؤلاء المدرسة
سوقا يبحثون فيه عن أحسن علاقة
بين الثمن والجودة...

القابلة للمناقشة. وهذا شيء جيد.
ولكن يجب أن نلاحظ أنه بمجرد ما
تم التخلص منها، طرحت مشكلة
السلطة من جديد.

لماذا تكتسي هذه المشكلة أهمية كبيرة
بالنسبة للمدرسة؟ لأن المدرسة، بكل
بساطة، لا تتوفر على وسيلة أخرى
للعمل غير السلطة : فهي لا تلجأ إلى
القوة لأنه لا يمكن أبدا لأي ضغط
مؤسستي أن يفرض على شخص ما
أن يتعلم.

تقوم قدرة الإقناع التي يتوفر عليها
المدرس داخل قسمه على الثقة
الموضوعة فيه تبعا للمهمة التي يكلفه
بها المجتمع، والتي تضمنها المؤسسة.
نحن هنا لدعمه في مهمة جماعية.
غير أن هذا التعاقد أصبح اليوم موضع
تساؤل؛ إذ لم يعد للمدرسين من
دعم غير ما يتوفرون عليه من كارزم
شخصي. فهم يعملون بدون حماية،
وبدون توكيل مؤسستي واضح.
فالمجتمع، بدءا من الإدارة، لا يؤازرهم.
وهذا ما أدى إلى الأزمة في المدرسة :

المتعة - التي لا تكون هيمنة وإنما تقاسما - من خلال وساطة المؤلف الفني أو العلمي أو التكنولوجي.

سؤال: إن ابتكار المدرسة من جديد يمر، إذن، عبر إعادة النظر بشكل نقدي في أدواتنا البيداغوجية أيضا؟

فيليب ميريو: إن النفوذ إلى المؤلف يصطدم بلهثنا الجنوني وراء المعرفة المباشرة، لأنه يستلزم تأجيل التوظيف الأداتي للمعرفة، والدخول في مغامرة فكرية. غير أن جيل أبناء الحداثة يريدون أن يعرفوا، بل يريدون معرفة كل شيء، لكنهم لا يريدون أن يتعلموا حقيقة. لقد ولدوا في عالم يفترض فيه أن التقدم التقني يمكننا من أن نعرف دون أن نتعلم. فلأخذ صورة فوتوغرافية واضحة اليوم، مثلا، لم نعد في حاجة إلى حساب النسبة بين عمق المجال وغشاء آلة التصوير مادامت الآلة تقوم بذلك لوحدها.

وهكذا يتوجه النظام التعليمي إلى تلاميذ يرغبون في المعرفة، ولكنهم لا يريدون أن يتعلموا حقيقة. تلاميذ

الرهان الذي يترتب عن ذلك رهان مزدوج: يتعين علينا، بداية، إعادة مؤسسة المدرسة، وذلك حتى في شكلها المعماري. فإذا كانت الثانويات النابليونية قد اشتغلت بشكل جيد، فلأنها كانت تجمع بين النظام والتأمل في توسط بين الثكنة العسكرية ودير الرهبان. وتعني إعادة مؤسسة المدرسة خلق وضعيات داخلها كفيلة بإنشاء المواقف الذهنية الضرورية للعمل الثقافي.

من الأساسي أن نحدد الإيقاع الزمني والمكاني للمدرسة، وأن نهيكل الجماعات داخلها، ونؤسس فيها طبقوسا قادرة على إثارة الاهتمام وإثارة إرادة التعلم. يتعين علينا بعد ذلك، ضدا على المعرفة المباشرة والنفعية، وضدا على انحراف «البيداغوجيا البنكية»، أن تكتسب لذة النفوذ إلى المؤلف. لا يجب أن تنحصر مهمة المدرسة في اكتساب مجموعة من الكفايات مهما كانت ضرورية. إن مهمتها هي النفوذ إلى الفكر. والفكر يتهيكّل ويكتشف

على تدارك تناقضاتنا ونواقصنا،
 وإعادة ابتكار المدرسة.

مارسيل كوشيه: ماذا نعرف عن
 معنى التعلم؟ في الحقيقة، لاشيء
 تقريبا: فنحن ننتقل فجأة من فأر
 المختبر، ومن السيكلوجية المعرفية،
 إلى الكفايات التي تهم المناقشة. لكن ما
 هو أساسي، أي فعل التعلم، يوجد بين
 الاثنين. والتعلم يتميز عن المعرفة التي
 لا نكف عن اعتبارها، خطأ، مرادفة
 له. إن التعلم في الأساس، بالنسبة
 للطفل، هو أولا ولوج عالم علامات
 الرسوم بواسطة القراءة والكتابة،
 والنفوذ بهذه الوسيلة إلى موارد اللغة
 التي تتجلى في تموضعها الكتابي.

وتلك عملية جد معقدة لم نتمكن
 أبدا، في الواقع، من الانتهاء منها؛
 ذلك أن القراءة لا تعني التهجي
 فقط، وإنما تعني الفهم أيضا. وهذا
 يتطلب سلسلة من العمليات المعقدة:
 عمليات التحليل، ووضع الكلمات
 في سياقها، والعودة إلى مصدرها...
 وهي عمليات لا نعرف عنها أي

متشبهون بمعارف أذاتية مكتسبة
 بأقل تكلفة ممكنة، ولم يعرفوا أبدا
 الرضا الرائع الذي يترتب عن بحث
 صارم. لهذا السبب، كان هاجس
 الكفايات يجعلنا نخطيء الطريق.
 فهو ينتمي إلى مذهب «الإنتاجية
 المدرسية»، ويختزل التلقين في صفقة
 تجارية، وينسى أن لكل تعلم تاريخ...

في الواقع، لقد كانت الثقافة الفرنسية
 دائما مترددة إزاء نظريات التعلم،
 وتفضل عنها نظريات المعرفة:
 وهكذا، يبدو «عرض المعارف»
 حقا الطريقة الوحيدة للتدريس
 سواء اتخذت الشكل الموسوعي
 الكلاسيكي، أو شكل النظام المرجعي
 للكفايات السلوكية. من هذا المنطلق،
 تشكل المعرفة البرنامجية بيداغوجيا
 لذاتها، وتعتبر أن كل وساطة،
 وكل عمل حول الرغبة، ينتميان إلى
 «البيداغوجياوية» الحقيرة. أتأسف
 كثيرا لما يسود الثقافة الفرنسية من
 جهل لتاريخ البيداغوجيا: لقد كان
 من شأن ذلك التاريخ أن يساعدنا

الاكتشاف بوضع قواعده الصورية. والواقع أننا نبتعد اليوم بخطى سريعة من هذا الوضع مع كتيبات الكفايات التي تضع في صف واحد كفايات متباينة ك «القدرة على البرهنة على الإبداعية» و «معرفة كيفية ربط نص برسالة بريد إلكتروني»...

ثم ماذا يعني كون التلميذ يملك 60 % من «الكفايات المطلوبة»؟ إن عبارة الكفاية تحيل إلى المعارف التقنية التي يمكن إعادة إنتاجها، تارة، وإلى قدرات يستحيل التحقق منها، ولا يبحث أحد عن معرفة كيفية تكونها، تارة أخرى. إن الكفايات تجزئ الثقافة نفسها، وتحول دون التكوين من أجل اكتساب القدرة على التفكير.

سؤال: في الوقت الحالي، حيث ننتقل من المعارف إلى الكفايات، ما هي الدعامات التي تمكن من ابتكار المدرسة من جديد؟

مارسيل كوشيه: يجب ابتكار المدرسة من جديد. لكن هذه الأخيرة لا تستطيع أن تفعل ذلك بمفردها في ركن معزول. لا يتعلق الأمر

شيء تقريبا. كيف نتمكن من تملك معنى نص مثلا؟ تجريبيا، نلاحظ أن البعض يتمكنون من ذلك بسهولة، بينما يخفق فيه آخرون بشكل غير قابل للتفسير. أمام كل هذه المواضيع نبقى عاجزين، فنتشبث بخليط من العادات المتجاوزة بهذا القدر أو ذاك، وبالابتكارات البيداغوجية العمياء.

فيليب ميريو: كما لا تختزل أية مهنة في مجموع الكفايات الضرورية لممارستها، فإنه لا تختزل أية معرفة في مجموع الكفايات الضرورية لتملكها. هل تكفي الكفايات الخطية والكتابية والإملائية والنحوية لولوج ثقافة أدبية؟ لا أعتقد ذلك، لأن ولوج عالم الكتابة يعني اكتساب القدرة على تحويل إكراهات اللغة إلى موارد فكرية.

هذه العلاقة بين الإكراهات والموارد تنتمي إلى عمل بيداغوجي لا يمكن اختزاله في تراكم معارف الفعل، وإنجاز تمارين آلية. فهي تحيل إلى قدرة ابتكار وضعيات مولدة للمعنى، تلك القدرة التي تمفصل بشكل وثيق

فيها جدا حتى من زاوية التشغيل والنجاعة الاقتصادية. من سيأخذ على سبيل الجد كتيب الكفايات الذي تم إدخاله للإعدادي بهدف تقويم أفضل لمكتسبات التلميذ؟

في العمل، كما في باقي مجالات الحياة، فإننا لا نتقدم، على جميع المستويات، إلا بفضل الفكر. وظيفة المدرسة هي، ببساطة، أن تعلم التفكير، وأن تستدرجنا إلى تلك السعادة التي تتمثل في السيطرة على الأشياء التي نفعلها، كيفما كانت تلك الأشياء بواسطة الفكر. هذه هي الخطوة الأكثر نجاعة. إن وهم الوقت الحالي، هو الاعتقاد بأننا سنحصل على نتائج عملية أفضل بالتخلي عن هذا البعد الإنسي.

فيليب مريو: أنا متفق تماما مع مارسيل كوشيه حول أهمية التعبئة السياسية من أجل مسألة التربية، وهي مسألة تتجاوز، من ناحية أخرى، مشكلة المدرسة. إن البرامج التربوية للحزبين السياسيين الفرنسيين الرئيسيين لا تقترح سوى إصلاحات

بمجال تخصص يكفي أن يعهد به للمتخصصين، كأى مجال آخر، لكي يجدوا له حولا مرضية. لا يمكن إيجاد حل للمشكلة التربوية في شروط كهذه. إن المسألة التربوية تهم الحياة العمومية بالدرجة القصوى، وترهن مستقبل مجتمعاتنا، ولا يمكن معالجتها إلا باعتبارها مسؤولية جماعية؛ تهمنا جميعا، ولا تهم آباء التلاميذ وحدهم.

إن أحد التطورات الحالية الأكثر بعثا على القلق، هو تحكم رؤية اقتصادية صرفة تم وضعها وتطويرها على الصعيد العالمي في القرار التربوي. وهذا هو ما يلخصه الصدى الذي خلفته نتائج أبحاث البرنامج العالمي من أجل متابعة مكتسبات التلاميذ (PISA) الذي تمت قيادته من قبل منظمة التعاون والتنمية (l'OCDE). إن وزارة التربية الوطنية لا تفعل غير تمرير التطورات المشكوك فيها باعتبارها نوع الأداءات التي يجب أن تتجه نحوها الأنظمة التربوية.

أوضح أن تلك التطورات مشكوك

البيداغوجي، لكنني أكثر إحساسا، ربما، من فيليب ميريو بالطابع غير المسبوق للوضعية التربوية الراهنة. يبدو لي أن أي خطاب موروث لا يرقى إلى مستوى الواقع المدرسي الذي نعيشه اليوم.

فيليب ميريو: المهم في الوقت الحالي هو ابتكار مدرسة جديدة تكون، بشكل مقصود وواع، مجالا للتباطؤ، وحيزا لتعلم التفكير، والعمل الجماعي المتضامن. والحال أن التراث البيداغوجي الخاص بهذه المسائل غني جدا على ما يبدو لي. أما بالنسبة للانقسام السياسي، فإنه يكمن بين الذين يكلفون المدرسة بمهمة تلقين مجموعة من المعارف التقنية التي تضمن تشغيل المتعلم في النهاية، وأولئك الذين يعتبرون أن للمدرسة مهمة ثقافية تتجاوز مجموع الكفايات التقنية التي تمكن من اكتسابها.

إنها مسألة مجتمعية تستدعي نقاشا ديمقراطيا حقيقيا.

مدرسية جديدة : فهي لا تثير، بأي شكل من الأشكال، مشاكل الأسرة، ودور وسائل الإعلام، وحضور الراشدين في المدينة، والعلاقات بين الأجيال...

سؤال : مارسيل كوشيه وفيليب ميريو، في الوقت الذي تنتميان إلى حركات مختلفة، سعيكما إلى تجاوز التعارض بين «البيداغوجيين» و«الجمهوريين»؛ ذلك الشجار القديم الذي قسم ما يسمى أنصار «معرفة كيفية التبليغ» وأولئك الذين ينادون بحصر التعليم في تلقين المعارف. فهل هذه علامة على نهاية انقسام حاد ومثل للحركة؟

مارسيل كوشيه: يبدو لي أن التعارض بين البيداغوجيين والجمهوريين ينتمي إلى الماضي. وهذا أمر أهني نفسي عليه، لأنني عملت دائما من أجل تجاوزه. الخلاف النسبي جدا الموجود بيني وفيليب ميريو يرجع، ببساطة، إلى اختلاف النقطة التي ينطلق منها كل واحد منا. فيليب ميريو ينطلق من البيداغوجيا، بينما انطلق من اهتمام يغلب عليه الطابع السياسي. أكيد أنه من المهم معرفة التراث

